المغارة

قصة بقلم أحمد خلف

منذ ثلاثة ايام ، وهم لا يكفون عن مطاردته ، لقد اعلن النبأ ، « ان من يسلم سلاحه للسلطات يكون معفى من العقاب » اجل ، العقاب ، شفتاه قد يبستا عطشا ، ساقاه تعبتا من السير ، كان لا ينى يقطع المسافات متيبا على الاقدام ، سقط للمرة الرابعة ، او العاشرة ، ترامت الصحراء امامه واسعة مع نظراته الثقيلة ، ولم يعد يدري على وجه الضبط ، ما اذا كان ليلا ام اخر النهار يسطع ضوؤه في المعمورة ، هل تراه فقد ناظريه ؟ أم ان الطبيعة فقدت ملامحها ، الجثث (لم يعد منظر القتل والقتلى المطروحين في السفوح ، او بين ثنايا التلال تثير اشمئزازه ، كلا ، لقد اعتاد ذلك قبل معارك ايلول على وجه التقريب) ترتطم بجذائه ، قدماه تتعثران بها او باجزاء متناثرة من عربة او مصفحة ، ولم تكن المرة الاولى التي يقف فيها مسعود الظاهر ضد القانون ، وحقيقة الامر ، معهم تسلية كانت لوقت قصير ، وحدي ضد الكل ، (كان هذا شعورا استثنائيا يلوح في راسه الصغير) . وحدي ضد القانون ، هناك اخرون لم يسلموا ، وبقوا بانتظار العقاب ، او بالاحرى قرروا ان يكون العقاب صادرا منهم ، ووجد مسعود الظاهر نفسه معهم ضد القانون ، والدولة والنظام ، ضد كل شيء خارج عن الاشياء ، انها نفس اللعبة التي مارسوها معهم من قبل ، لن يسلم سلاحه لاحد (كان اخوه قد قتل في معارك حزيران عام ١٩٦٧) وحين وصل النبأ الى العائلة كان مسعود قد طفر من سريره في الغرفة واستقبل العريف قائلا :

ــ هل كان شجاعا ؟

قال العريف مرتبكا : ــ لقد مات وسلاحه بين ذراعيه .

هز رأسه بعد صمت قصير جدا ، ثم قال للعريف :

ــ طيب . اعلم ان الخبر قد وصل .

وحين عاد الى جلسته وجد نفسه قلقا بعض الوقت ، فلم يشا ان يخبر احدا ، وظنت العائلة ان ابنهم فقد أو مات او هرب لفظاعة المعارك ، ظل يحتفظ بالنبأ لنفسه ، دون غيره وسوف يرتضي الموت شرط ان تكون البندقية بين ذراعية .

الان يشعر بالتعب ينال منه ، يحط المساء رحاله على الصحراء ، يحاول مسعود الظاهر ان يتلمس طريقه عبر الحفر ، التلال، الصحراء المترامية ، طريق ضيق ملتو ، هل ينام حتى الصباح بين حافتي التلال ؟ لكنه تردد ، ذلك لان الجوع هو الاخر ، كان يهبط على جسده كسيف حاد النصل ، مسعود الظاهر لم يعد يحتمل البرد والحر ، والجوع والعطش . آية لعبة يشترك العالم فيها ضده ، ولكن ماذا يقول عن تلك الاجساد التي عافها الرجال في الصحراء ، طعام الذئاب العاوية والكلاب السائبة ، وماذا يقول مسعود الظاهر ، عن العقاب الذي ينتظره ؟ فصول المجزرة كاملة الان ؟ اطرق برهة قصيرة ، وهز رأسه كعادته حين يشعر بالضيق من أي شيء ، وظل يسلك طريق الصحراء ، دون دراية أكيدة منه ، سوف يظل يسير هكذا ، الشمس تقف مليئة قليلا على حافة الكون ، الضوء مشبع بلونه الذهبي ، حين تنعكس خطوطه الصفراء والحمراء على تراب الصحراء ورمال التلال ، عوت صيحات متناثرة لذئب تائه ، لم يلتفت ، صمم على ان الاستدارة يجب ان تكون باطلاقة تصيب الهدف . مهما يكن (كان يردد ذلك مع نفسه ، والحقيقة ان مسعود الظاهر غالبا ما يردد كلمات لا نفهم حين يكون غاضبا ، وغالبا ما تطفر منه عبارة ناقصة) مهما يكن ، فان ادع آية رصاصة تذهب مع الريح ، لقد شاهدهم صباح اول امس، الجنود والبدو الملثمين ، كيف يطلقون النار في الهواء ، ليس من اجل الهدف ، كلا ، كانوا يريدون ان يعلنوا عن وجودهم ، ولاح في خاطره ايضا ، تلك اللحظة ، تحطيمه لمجنزرة بكاملها ، وفكر ايضا ، ان هذا يمكن حدوثه في الخيال فقط ، فظائع ، لا يمكن ان تحدث في الارض ، ألم شديد يعتصره وهو يقطع الطريق ، اقدامه تغوص في الارض ، يحاول ان يرفعها ، يجدها ثقيلة ومتعبة ، حذاؤه يلتهم الرمال ، وعيناه تفقدان طريقهما شيئا فشيئا ، ترى الى اين يتجه مسعود الظاهر ؟

لم يكن يعلم بالضبط الى اين يسير الآن ، والى أي اتجاه تقوده قدماه ، كل ما يعلمه انه يقطع طريقا ، غالبا ما كان البدو قد سلكوه ، وغالبا ما قطعه هو ضدهم ، وأوشك على الانفجار بضحكة، يتصورها كيف تدوي في هذا الخلاء الواسع الممتد امامه ومن حوله ، أشبه بتمساح يفتح شدقيه الكبيرين ، انه في حلق التمساح ، هذا مؤكد ، ووضع يده على أخمص رشاشته وتلمس صف الرصاص فوق الخاصرة ،

ــ ترى ماذا لو اعطيت حياتين يا مسعود الظاهر ؟

هذه الحياة هي الوحيدة التي يستطيع ان يكون فيها مسعود الظاهر مخلصا لنفسه على الاقل ، آجل لنفسه على اقل احتمال ، (مسعود الظاهر ، قضى فترة ما قبل حزيران يبحث عن العاهرات الرخيصات والتبوغ المهربة والمطاعم الرخيصة ومقاهي الاصدقاء وكانت الارصفة ــ غالبا ــ ملاذه وملجاه اليومي) ... مسعودالظاهر، كره تلك الحياة وشعر فيها بالملل ، وكان بانتظار ان تنفجر الدملة فلم تنفجر حتى جاء حزيران . وحين سال قيح دملته ، قال لنفسه : ــ حسنا يا مسعود الظاهر ، والان ماذا تنتظر ؟) ليس القادم نحوه الان ، ضوءا ، ولا عربة عسكرية ، ليس جملا لبدوي يبحث عن لقطة يهديها لسيده ، كلا ، كان جسدا بشريا لينا ، قد جف ويبس في الحال ، يبصره مسعود الظاهر على بعد امتار في مسيرته ، يحيد الجسد البشري قليلا عن طريقه ، متلفعا بالخوف والجزع ، هو الاخر ارتد الى الوراء وتوقفت ساقاه عن الحركة ، بالاحرى ، شلت حركة جسده المثقل بالتعب والجوع والعطش ، يرفع رشاشته الصغيرة ، نحو الصدر ، وحانت اللحظة التي تنفجر فيها الدنيا بأسرها ، لم يعد امامه الا صرخة واحدة ويطلق ، وكان الخصم قد تهالك في الحال ، حين شاهد البندقية ترتفع فوهتها قليلا نحو الاعلى. تهالك ورفع ذراعين بيضاوين فوق جزة الرأس . تقدم مسعود الظاهر خطوتين الى امام . توقف .

حدق قليلا وحاول ان يعرف القادم نحوه ، بشرا ام شبحا ؟ (لقد داخله شعور أولي ، انه مجرد انسان تائه ، غير ان هذا الشعور ما لبث ان تلاشى حين شاهد الذراعين تنتفضان نحو الاعلى كيدي غريق يوشك النهر على ابتلاعه في اللحظات الاخيرة) توقف متحفزا لكل شيء ، الجزع الذي ينتفض في الجسد ، والخوف المتربص تحت الجلد ، والليل المتقدم في الصحراء ، كان هذا كافيا لكي يجعله يطلق رصاصاته في الهدف لكن الصيحة جاءت مسرعة كالسهم ، ــ لا تطلق . قال مسعود الظاهر ، « بصوت مضطرب ، وخائف بعض الشيء » .

ــ من أنت . تقدم نحوي .

ــ لا استطيع هذا ، تعال انت .

انتبه مسعود الظاهر لنبرة الصوت :

ــ امرأة ؟ .

ـ نعم . أضعت طريقي .
ـ أهذا صحيح . لا تخافي . تقدمي .
كانت الجثة قد نهضت ، تحاملت على ساقيها ثم دنت منه ، ولم يعد بينهما الا مسافة قصيرة بين الوجهين ، خيل اليه انه سبق وشاهدها ، لكن العتمة المبكرة منعته من الحسم ، ترى من تكون ولماذا هي هنا ؟ أيصدق كلامها وتكون ضائعة وسط الخوف والمعارك في الصحراء ؟ اشعل عود الثقاب بسرعة قاطعة ، الانفاس الثقيلة تهبط ، وتوشك على التلاشي . لقد هدأت سورة الخوف والغضب في الاعماق قال لها :
ـ احكي . هل انت ضائعة حقا ؟
بلعت ريقها اليابس ، وخفضت رأسها الى الارض قليلا ،
ـ ليس عندي وقت كاف لكي انتظر ان تتحدثي .
ـ غادرت اهلي في الصباح ،وحين عدت اليهم كانوا قد غيروا مكانهم . نحن قوم رحل .
ضحك بصمت . انحلت اساريره . انحلت ذراعاه ، ما لبثت الضحكة ان انفجرت من فمه مدوية ، بصخب ، ضحكة ملأت فمه ، يحسها وهي تغادر اعماقه ، انها تنظف احشاء بطنه ، الضحك . صار صاخبا الان ، كل شيء بدا مائلا منحرفا ، « قوم رحل » وقهقه مرة أخرى ، بالاحرى كانت الضحكة تتقطع في بلعومه ، لم يكن قادرا على ارسالها دفعة واحدة الى الفضاء ، والريح تطوي الصوت، كان يصغي لضحكته تندفع بعيدا بين ثنايا الليل ، الليل الذي جاء مبكرا جدا .
ـ والان ، الى أين تتجهين ؟
ـ أني اعرف المكان الذي ذهبوا اليه .
ـ هل هو بعيد جدا ؟
ـ نعم . مكانهم ، ولكني ...
بدا كل واحد منهما يرى الاخر بوضوح نسبي ،
ـ حسنا ، سأذهب معك اذا شئت .
ـ كلا . سأدلك على مكان تنام فيه .
ـ وانت الى اين ستذهبين ؟
ـ لا شان لك بي ، اذا أردت أن تدعني .
كانت اقدامهما تتجه نحو جهة اخرى ، ليست الوجهة التي كان مسعود الظاهر قد توجه اليها ، وبدأ خاطره يتحرك ، ينتفض بسرعة ، هل يسير معها ام يرفض . هل يدعها وشانها ام يوثقها الى حجر كي لا تشي به ؟ وكان واضحا جدا ، انها تعرف المكان « قوم رحل » هذا واضح من ثقتها التي تكلم بها عن الاهل والمكان. انها تعرف الى اين تتجه ، وبأي أرض تسير ، اما هو فانه ضائع الان تماما .
قال فجاة :
ـ الى أين تتجهين بي ؟
ـ اني اعرف مكانا امينا يمكن ان تنام فيه .
ـ وكيف لي ان اصدق ؟
ـ هذا شانك . ولكن سوف تبدأ دوريات البدو في تمشيط المكان .
ـ وكيف تعلمين ذلك ؟
ـ اني أعرفهم ، فهم يترددون على هذه التلال دائما .
ـ حسنا ، سوف اقتلك اذا شعرت باي خطر .
ـ حتى لو لم أكن انا السبب ؟
ضحك . ووجد يده تحط فوق كتفها ، ثم كانت اليد قد انتفضت قبل ارتعاشة الكتف حين قالت المراة :
ـ لا تحاول هذا معي مرة اخرى .
لم يقل شيئا ، شعر بارتعاشة غريبة تسري في عظامه ، لقد مضت ثلاثة اشهر ، لماذا لم يقل أربعة أو خمسة اشهر لم ينم فيها مع جسد ولم تختلط انفاسه بانفاس امراة ، على الاطلاق ، على الاطلاق ، وبرق في الراس اكثر من وميض مسرع في حركته ، ها هي الذاكرة الدامية تنفتح عن اكثر من صمام مغلق ، لتحل اللعنة عليه ، ليف تسنى له أن يوصل كلماته لها ، كانت سير صامتة ، يقظة، وكان يدرك جيدا ، انها تضغط على انفاسها لكي تبدو منتبهه لكل حركه او نامة تصدر عنه ، لن يكرر حركة يده بعد الان ، ولمست شعر بالحنو ازاءها يطفح في أعماقه ، كالسيل ، وأوشك ان يحدثها عن كل شيء ، كل شيء ، ولكنه وجد لسانه ثقيلا لا يطاوع رغبته في الحديث ، ووجد نفسه تلتوي بعاطفة غريبة نحوها ، وكانت قامته ترتفع على قامتها بضع أصابع ، يحاول ان يخزرها من علو . مرتين ، وثلاث مرات ، ولكنه فشل في الوصول الى شيء . ودخلت به واديا صيقا ، فالت :
ـ هناك ، تقدم . (واشارت بيدها على المكان) .
وقف مسعود الظاهر مبغوتا . وحدق بامعان وتعب .
ـ ماذا هناك ؟
ـ تستطيع ان تنام .
ـ اني لا ارى شيئا ابدا .
وكان قد لاحظ ثمة كتلة سوداء ، كتلة لم تكن واضحة بالتمام ولكنها بارزة وسط رمال الصحراء . وانحناءات التراب الهش ، ثمة صوت يرد اليه ، لقد ملأ الصوت أذنيه ، ثم ما لبث ان اختفى ، واصاخ السمع ، أصاخ وحاول ان يستمع ، لقد شعر مسعود الظاهر ، كم هو وحيد ومعزول الان عن رفاقه ، انه وحيد تماما ، منفرد في عزلته عن العالم ، الامتعاض يصعد الى بلعومه نحو الحنجرة ،كل شيء يقف الان في الجانب الاخر منه ، يتخذ مسار الضد ، المراة ، والصحراء ، والعدو ، وهو ، حتى هو اصبح ضد مسعود الظاهر، أين كان قبل ثلاثة ايام، واين غدا رفاقه الثلاثة قبل ان يتحولوا الى جثث في الصحراء ؟ وأوشك ان يصرخ ، وقال بحدة :
ـ تقدمي انت .
وكان قد عدل من وضع بندقيته نحوها ، كانت سورة الغضب تصطرع في داخله كقطعة حديد ساخنة .
ـ لن أتقدم ، اني أخاف منك .
الصوت يتضح الان في سمعه ، كانت محركة (الاندلوفر) تقطع مسافة من الصحراء ، وتوقف الصوت ومرق الضوء الكاشف بسرعة من حولهما ، هبط الى الارض وسحبها معه ، كانا الان على الارض يجثوان معا ، وقالت بنبرة غاضبة :
ـ لماذا تمسك بي ؟ دعني .
وكانت قد نبهته الى اصابعه الغائصة في لحمها ، فسحب ذراعه وبسطه على الارض . قالت :
ـ تلك هي المغارة ، تستطيع الاختفاء فيها .
ـ ستكونين معي ، ستكونين معي ، لن ادعك تخبرين عني .
ـ لن اخبر عنك أحدا ، انك لم تعمل معي شيئا سيئا .
لكنه لم يصدق ، ولم يحاول ان يلين او يهدأ ،وقد خطف الضوء الكاشف من جديد حولهما ، وكان يحوم منذ برهة حول المنطقة التي كانا يسيران فيها ، نحو المكان الذي اتجهت اقدامهما اليه ، ترى ماذا سيحدث لو تركها تذهب ؟ اغلب الظن ان نهايته ستصبح قاب قوسين ، يعدو الضوء الان اشد قوة وتركيزا . وفجاة تحركت السيارة ، وتقدمت ليس منهما ، بل نحو حافة التل ، صوت المحرك واضح ، واصبح بوسعه ان يخمن اطارات الاندلوفروهي تغوص الى منتصفها في الرمال . انقطع صوت المحرك فجاة، وحاولت المراة ان تتملص ، ان تنهض بصمت ، لكنه فوت الفرصة عليها ،

السفر في العيون المقاتلة

ـ ١ ـ

لماذا أنتِ في دمي اصطبغت
وصرت . مخرج صورتي الفلقة
لماذا أنتِ أسرجت الخطى ..
في داخلي
وشردت في اعضائي الشبقة ؟
أصاندة الضواري أنتِ ...
أم حمّالة النزوة ؟
دعي اسماءك الكبرى
دعي الصغرى ...
وخليني
بعينيك المقاتلتين
افتح قلعة الشهوة ...

ـ ٢ ـ

أيا سلمى ...
ضعيني في الرماد وبخّري
بدني
فما عرفت عصافير المحبة
بعد ... ما عرفت
بأني ضعت في وطني
وشدّيني .. الى الطرق التي
ما زلت .. أجهلها وتجهلني
لعلي في احتراق النهد والشفتين
يا سلمى
أرى ... كفني .

ـ ٣ ـ

انا معكم .. أحبائي
فلا تدعو الظنون
تدور في الصمت
ومعذرة اذا ما غبت
بعض الوقت مع سلمى
فما ضيعت اسمائي
ولا ضيعت .. عنواني
أنا ما زلت أذكركم ...
أحبائي
فأنتم ... اسمي الاول
وسلمى ... اسمي الثاني .

حلب

عصام ترشحاني

ولكن أبهذه السرعة يا مسعود الظاهر تتغير الاشياء ، وتصبح في مواجهتك مكشرة عن انيابها ، اللعنة ، مسح فمه اليابس ، وحاول أن يرطبه بريقه ، وشعر بالخوف يجتاحه ، يغزو جسده ، ليس خوفا واضحا ، انما هو اشبه بارتعاشات متقطعة ، ماذا يجب عليه ان يفعل ؟

ـ ستكونين في امان معي .

ـ لا استطيع تصديقك .

تكشف الخطر المحدق به ، قريبا ، وموشكا ، وها هي فرصته في ان يفوت عليهم اقتناصه ،وغدا اذا ما حل النهار فسوف يلتحق بمجموعة ثانية ، ويكون في وضع جديد ، اكثر طمانينة ، اما الان فانه يغامر ، وهو لا يريد ذلك فعلا ، ولكن اذا ارغموه على المغامرة ، اذا دفعته الصحراء ، والمرأة ، والاندلوفر الى النهر فسوف يخوض ماءه رغم انهم سيستبدلونه بالدم . والتمعت في رأسه عيون غريبة محدقة ، ساخرة . اما هو فقد غدا وحيدا تماما ، ولم يكن معه سوى البندقية الرابضة بين ذراعيه ، وعادت السيارة توجه ضوءها من جديد ، ثم انطفأ فجاة ، وفجاة قفز جسد في الهواء ، وتبعه اخر ، وكان يرى ذلك بنصف وضوح ، ماذا يفعلون ، واحس بغتة انهم يحيطون المكان من حوله ، اقترب منها وهمس :

ـ لنزحف نحو المغارة .

ـ اذهب انت وحدك .

ـ ألا تشاهدينهم ؟ سوف يقتلوننا معا .

ـ انك تتصور هذا وحدك .

ـ ولكنهم قريبون منا الان .

ـ كلا ، ليس هناك احد سوانا .

ـ ألا تشاهدين الضوء ؟

ـ اجل ، ولكنهم لا يعرفون باننا هنا معا ..

قرر ان يرغمها على الزحف معه نحو المغارة ، ونظر امامه كان يقيس المسافة بعينيه المتعبتين ، لكي يرى ، كم سيتحمل مشقة الوصول الى هناك ؟ ذراعه تلتف حول عنقها يسحبها اليه . رفست ، ولكنه سحبها قليلا نحو الفتحة المعتمة في اسفل التل ، رفست بقوة وافلتت رأسها من طوقه ، وندت منها صيحة مبهمة ، وشعر بانه يقف معها على حافة الموت ،ولم يشهد موته احد سواهم ، الكلاب ، ها هو الضيق يحاصره من كل زاوية ، خنقها بذراعه ورفسها بعنف، كفت حركتها الان ، لكنهم سحبوا سيارتهم نحو الوراء قليلا ، ثم جاءه الصوت واضحا وقويا :

ـ من هناك ؟

لم يقل شيئا ، وحبس انفاسه ، ووضع على فمها يده الرطبة وعادت المرأة بثقل جسدها ، تنتفض ، عاد صوتهم :

ـ من هناك ، سنضطر لرميكم .

حسنا ، انهم يتصورونا مئة ، هكذا هم دائما ، ولم يعدالضوء يتوجه اليهما ، لقد كف عن كشف المكان ، غير ان المرأة كانت قد تخلصت منه ، وشعر بالعرق يرشح من جبهته ، من ابطيه ، ينز من انحاء جسده المتعب ، وضيق على حاجبيه ، حين انتفضت المرأة بجسدها واقفة ، وكانت الاطلاقة مدوية في الهواء ، لتغوص في اللحم ، لم يكن يدري على وجه التحديد ، ما اذا كانترصاصة واحدة ام عشر رصاصات ، والذي يعرفه مسعود الظاهر الان ، انه بقي وحيدا تماما ، وان المرأة سقطت بجانبه على الارض مضرجة بدمها، وكانت اصابعه قد لطخت بالدم ، دفعها بعيدا عنه ، واسند ظهره الى الريح ، كانت الفوهة تستدير نحوهم ، وانتظر ان يحبس انفاسه اللاهثة ، غير انهم لم يتوقفوابعدئذ بل تركوا سيل الرصاص ينصب ، وكانت البندقية بين ذراعيه تهتز لشدة الحركة ، وكان يغوص معها في الرمل ، وها هو الان يوشك ان يغرس المشط الاخير في التراب الناعم ، الرصاص بأنيه من كل مكان وزاوية .. برهة .. تهدا الدنيا . تستقر على حافة الصمت ، الان ، لم يعد يعلم أهو الذي توقف عن الرمي ام انهم فعلوا ذلك قبله .

بغداد

احمد خلف